

القرافة

وكانت القرافة من معالم الفسطاط، وقد أفاض المقریزی وغيره فى الكلام عنها فقد رؤى أن تكون للحاضرة الإسلامية مقبرة، ولذلك جعلت بأرض المقوقس عند سفح المقطم شرقى الفسطاط، ودفن فيها عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة، وخصص فى جنوب المقبرة مكان لدفن موتى الأقباط وظلت مستعملة حتى أيام الفواطم، ثم أخذ خلفاؤهم يدفنون موتاهم فى تربة الزعفران من القصر الكبير (خان الخليلی)، أما الأهالی فقد ظلوا يدفنون موتاهم فى مقبرة الفسطاط.

وبعد اضمحلال الفسطاط طغت المقابر على مساكن خطة المعافر التى خلت تدريجياً من ساكنيها وعلى مساكن خطة بنى قرافة ومن هنا أطلق اسم القرافة على المدافن بتلك الجهة أولاً ثم عم سائر المدافن وعرفت باسم القرافة الكبرى.

وفى أيام الأيوبيين أنشئت حول قبة الإمام الشافعى جملة قبور أطلق عليها القرافة الصغرى وتضاءل الدفن بالقرافة الكبرى إلى أن عاد إليها فى أيام السلطان الناصر ابن قلاوون. وأخذ الناس يدفنون موتاهم بعد عام ١٣٠٠ تحت سفح المقطم فيما يلى قلعة الجبل. ثم انتشرت القرافات فى شرقى القاهرة وفى شمالها. بين باب الوزير وباب النصر إلى باب شرقى باب الحسينية ومنها إلى العباسية الشرقية.

وكان للقرافة الكبرى خندق حفر حولها وحول الفسطاط وكان ذلك فى عام ٦٥هـ / ٦٨٥م حينما خشى الوالى هجوم مروان على مصر من تلك

الجهة، وفي ٨١٥م طمى هذا الخندق ثم أعيد حفره فى أثناء فترة الشقاق بين
الأمين والمأمون.

حريق الفسطاط

حدث للفسطاط فى أثناء حياتها انقلابان عظيمان هما قيام صاحبة
العسكر، ثم مدينة القطائع وجاءت المرحلة النهائية للفسطاط عقب ذلك فى
مناسبتين كانت الأولى فى أيام الشدة العظمى فى أثناء خلافة المستنصر بالله
الفاطمى. وكانت الثانية حريق مصر فى وزارة شاور فى أثناء خلافة العاضد،
أما المناسبة الأولى فكانت عندما تمرد الجند وساد الاضطراب وحلت بالبلاد
المسغبة والمجاعة ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالى. فكتب إليه
سراً يستقدمه إلى مصر لتدبير الأحوال، فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة
وعمل على تخريب الفسطاط. فقد أباح للجند وللقادرين على البناء أن
يعمروا ما شاءوا فى القاهرة وغيرها فعمرت وسكنها الناس ولم يبقوا شيئاً فى
الفسطاط أو العسكر أو القطائع وتركوا موقعها موحشاً مقفراً.

أما لامناسبة الثانية فهى حريق الفسطاط الهائل الذى أمر بإضرامه شاور
سنة ٥٦٥ لما غزا ملك بيت المقدس عمورى (أمريك) الديار المصرية عندما
عجز عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها فى أيدي الصليبيين.

أمر شاور بإخلاء الفسطاط وحرقتها ويقول المقرئى: «بعث شاور إلى
مصر بعشرين ألف قارورة نبط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها فارتفع
لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرًا مهولاً. واستمرت النار تأتى

على مساكن مصر فى اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً.

ومن ثم تحولت مصر إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر، فلما حدث الحريق رحل عمورى من بركة الحبش^(١)، ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً.

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد. فانقلت الحركة التجارية إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع، وقد قال ابن سعيد المغربى إذ ذاك: «وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحة وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة».

ولقد ترك لنا ابن دقماق والمقريزى والقلقشندي إلى جانب ما كتبه ابن سعيد عن مدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى معلومات إضافية تتفق فى أن تدهور المدينة كان يزداد قرناً بعد قرن وفى العبارة الآتية لخص القلقشندي المحن التى نزلت بالفسطاط فقال:

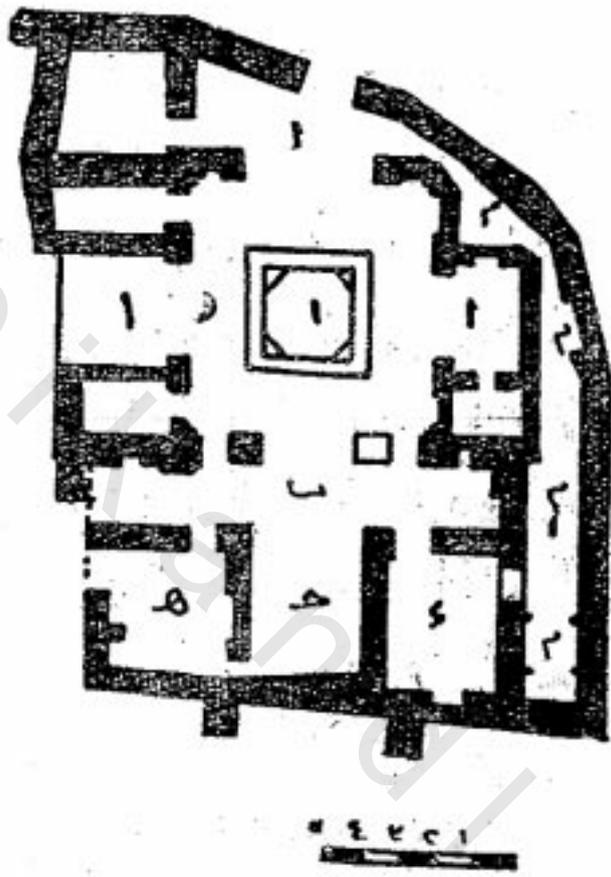
«ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان نامى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص. وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها فخلا من أكثر سكانه. وتتابع الخراب فى

(١) كانت هذه البركة واقعة جنوب مدينة مصر بين النيل والجبل وكانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه سنوياً. وكانت تشغل فى الأراضى مساحة قدرها ١٥٠٠ فدان - تعليق الأستاذ محمد رمزى - النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٨١ و٣٨٢.

بنيانه إلى أن بلغ الفرنج أطراف الديار المصرية فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين». .

وعلى هذه الحالة تحولت الميناء النهريه والعاصمة الإسلامية الأولى إلى أكوام من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثرى الجليل الأستاذ على بهجت، فكشف فيما بين عامى ١٩١٢، ١٩١٣م أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التى لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع .

ومن يزور الفسطاط الآن، يرى أنها تنقسم قسمين: قسم شرقى مجاور للجبل، وقسم غربى واقع على النيل . فأما القسم الشرقى وهو الفسطاط الأصلية التى وقع فيها الحريق فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، فكله خراب وأرض مشغولة بالتلال والكيمان، ويتخلل بعض أجزاء الحفائر التى عملت للكشف عن بعض دورها القديمة، ولا يوجد الآن فى هذا القسم من المباني إلا قصر الشمع وجامع عمرو، ومن الأمكنة المسكونة خط كوم ابن غراب (كوم غراب الآن). وأما القسم الغربى من الفسطاط فهو الذى يعرف اليوم بمصر القديمة، ويسمىها العامة «مصر عتيقة» ويحده من الشرق القسم الشرقى السابق التحدث عنه، ومن الشمال المكان المقام عليه الآن قناطر مجرى الماء المعروفة بحائط العيون والتى تنتهى من الغرب بسواقى مجرى الماء المعروفة بسواقى العيون بقم الخليج، ومن الغرب مجرى سيالة جزيرة الروضة .



أحدى دور الفسـطاط وهى على صغرها
 من الأمثلة الكاملة المتقنة . « على بهجت »

العلم والعلماء فى الفسطاط

أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علمياً فى الدولة الإسلامية. كما هى مركز سياسى، فكان للمصريين شأن واضح فى علم القراءات وكانوا أساتذة القراء فى الأندلس والمغرب. وكان من أقدم علماء الحديث عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب «الجامع فى الحديث». ومن نبغوا فى علوم الدين فى المدرسة المصرية فى فجر الإسلام أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة^(١). والليث بن سعد بن عبد الرحمن الأصبهانى الأصل المصرى المولد^(٢)، وكان ثقة كثير الحديث صحيحه اشتغل بالفتوى فى زمانه، وقال قائل حين مات:

ذهب الليث فلا ليث لكم

ومضى العلم غريباً وقبر

وكذلك وفد الإمام الشافعى على مصر، وأخذ عنه المصريون طريقته فى المناظرات الفقهية والكتابة العلمية، ولكنه تأثر بمصر وكون مذهبه الجديد فيها وقويت مدرسته بها.

ولد الشافعى فى رجب سنة ١٥٠هـ بغزة، ولما بلغ من العمر تسع سنين كان قد أتم حفظ القرآن كله، ثم جالس العلماء فى المسجد الحرام ليحفظ

(١) الفقيه الحضرى المصرى الذى ولد حوالى عام ٩٧هـ وولى قضاء مصر عشر سنين. ومات بها فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٧٤هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ٣١٣).

(٢) ولد بمصر فى قرقشندة بأسفل مصر (القليوبية) سنة ٩٤هـ، وتوفى سنة ١٧٥هـ. راجع مصر فى فجر الإسلام ص ٣١٧ للدكتور سيدة إسماعيل كاشف.

الحديث وعلوم القرآن وغيرها، وعرف بقوة الذاكرة والذكاء المفرط والفهم السريع، وبعد أعوام قصد المدينة حيث اتصل بالإمام مالك وقرأ عليه الموطأ في أيام يسيرة وحفظه عن ظهر قلب. ثم رحل إلى الكوفة وساح في بلاد فارس وما حولها من العواصم، وسافر إلى ديار ربيعة ومضر ومنها رحل إلى شمال العراق حتى وصل إلى جنوب بلاد الروم، وعرج على حران ثم سافر منها إلى فلسطين وأقام في الرملة أياماً ثم قصد ثانية المدينة المنورة حيث قابل ثانية الإمام مالك.

ولم يمض على الشافعي زمن طويل بعد عودته إلى المدينة حتى جاءت الأخبار من مصر بوفاة الإمام الليث بن سعد في نصف شعبان سنة ١٧٥هـ. فحزن لوفاته مالك والشافعي، وأقام الشافعي بعد ذلك في المدينة أربع سنوات وأشهرا إلى أن توفي الإمام مالك (١٧٩هـ) ودفن بالبقيع في ظاهر المدينة. وكان عمر الشافعي عامئذ ٢٩ سنة تقريبا.

رحل إلى اليمن وتزوج وكان مثلاً أعلى للحياة الزوجية الطاهرة. وهناك علت مكانته وارتفع قدره في العلوم والمعارف، سواء كانت فقهية أو رياضية أو فلسفية أو طبية أو فلكية إلخ، ثم وشى به لدى الخليفة هارون الرشيد الذي أرسل أحد قاداته لاعتقال جماعة من العلويين ومن بينهم الشافعي ونقلوهم إلى بغداد ثم حملوه وهو مثقل بالحديد إلى حضرة الخليفة، وبعد حديث ديني دار بين الرجلين أمر هارون بمنحه ألفي دينار. فنهض الشافعي شاكرًا ثم استأذن في الانصراف فأذن له وخرج ووزع المال على المحتاجين الذين قابلهم في الطريق.

وأقام الشافعى فى بغداد يجالس علماءها فاتسعت حلقة طلابه فأوغر بذلك صدور بعض علماء العراق، ولكن بالرغم من ذلك ازدادت مكانة الشافعى عند الخليفة، وأصبح فى بغداد موضع إكرام أمرائها وعلمائها وسادتها، وعلى رأسهم الإمام ابن حنبل، وفى تلك الفترة أتم الشافعى تأليف كتابه الزعفران.

عاد الشافعى إلى مكة وأقام فيها سبع عشرة سنة يعلم الناس وينشر مذهبه إلى أن تافت نفسه إلى بغداد فرجع إليها وأقام بها مدة قصيرة، حتى رأى السفر إلى مصر مع العباس بن موسى والى مصر الجديد - فخرج أهل بغداد لوداعه، وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل، فمسك الشافعى بين ابن حنبل ساعة الوداع وقال:

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامة والفقير

والله لا أدرى اللعز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر

وفى ٢٨ من شوال سنة ١٩٨هـ دخل الشافعى مصر مع العباس بن موسى ونزل عند أهله من الأزدي. ثم ابتداءً فى إلقاء دروسه بجامعة عمرو بن العاص، فنبغ عليه كثير من المصريين والمصريات، ووضع الشافعى فى مصر كتبه الجديدة، وكانت نحو عشرين كتاباً منها كتاب الأم، والإملاء الصغير، والأمالى الكبرى، ومختصر الربيع، ومختصر المازنى، ومختصر البويطى، وكتاب الرسالة، وعلم أصول الفقه.

أما مذهب الشافعى فهو التوفيق بين النص والقياس، وذلك إذا وجد سبيلاً قوياً وإلا عول على ظاهر النص من الكتاب والسنة بغير ميل إلى التأويل مطلقاً. وأما رأيه فهو التمسك بالسنة الصحيحة تمسكاً خالياً من الغرض والأهواء.

وأقام الشافعى فى مصر خمس سنين وتسعة أشهر يعلم الناس العلم ويؤلف كتبه الجديدة وينشر مذهبه بين الناس. وفى نهاية هذه المدة أصيب بمرض البواسير ولما اشتد عليه غالبه الموت فتوفى فى ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) بعد العشاء الأخيرة.

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر وقلبها النابض فى ذلك العهد جامع عمرو بن العاص مثله فى هذا مثل الأزهر الشريف فيما بعد. فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة، وإليه يلجأ الناس للاستفتاء، وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء^(١).

ولقد كان لمصر سبق ملحوظ فى ميدان التصوف الإسلامى. فالمعروف أن أبا الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون، كان أوحد وقته علماً وورعاً وأدباً وزهداً، وهو من أقطاب الصوفية وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية، وإليه ينسب القول بأن الوجد، وليس العلم، هو السبيل الوحيد لمعرفة الله المعرفة الحقيقية.

(١) راجع فصل الحركة العلمية فى كتاب الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف - ص ٣١٤ -

ولد ذو النون بأخميم حوالى عام ١٨٠هـ (٧٤٦م). ويقال أن سعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده الروحى. سافر إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك. وقد تحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص قال: «لقد حصلت فى أول أسفارى علمًا يرضى الخاصة والعامة. وحصلت فى ثانيها علمًا يرضى الخاصة دون العامة، وفى ثالث أسفارى حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدًا طريدًا. لقد حصلت من العلم فى المرة الأولى التوبة وهى مقبولة لدى الخاصة والعامة على حد سواء، وفى المرة الثانية وصلت إلى التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تفهمها العامة - وفى المرة الثالثة وصلت إلى الحقيقة التى تسمى على العلم والعقل فأعرضا عنها ولم يتفهماها»^(١).

وكانت المعرفة هى أهم وضوع فى تعاليم ذى النون، كما أنه كان من أوائل الصوفيين الذين تعرضوا للكلام عنها. فقد قال بأن المعرفة بالله ثلاث، أولها هى معرفة التوحيد التى هى ملك لكل المؤمنين، وثانيها معرفة الحجة والبيان، وثالثها معرفة صفات الوجدانية^(٢).

وكان التاريخ أهم ما ساهمت به مصر فى روضة الأدب الإسلامى. ولا منازع فى أن المرجع الوحيد الذى يستند إليه فى معرفة تاريخ مصر الإسلامية من بداية الفتح الإسلامى إما هو كتاب «الولاية والقضاة» للكندى^(٣) الذى وفق

(١) مقال «ذو النون المصرى» بقلم الدكتورة مارجريت سميث - مجلة الأدب والفن عدد ٣

عام ١٩٤٣ (السنة الأولى) ص ٥٤ - ٦٣.

(٢) توفى ذو النون بمدينة الجيزة فى سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م.

(٣) ولد أبو عمر محمد بن يوسف الكندى بالفسطاط فى سنة (٢٨٣هـ - ٨٩٧م)، وتوفى

سنة (٣٥٠هـ - ٩٦١م) وكان حجة ثقة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وأعمالها وثغورها.

إلى طبعه المستشرق الإنجليزي جست ، ، وقد نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده الكثير مما دونه فى موسوعته . ولا ريب أنه سبقهم إلى الكتابة فى خطط مصر وآثارها وفى تاريخ قضاتها . وقد حذا حذوه فى الموضوع الأول ابن زولاق والقضاعى وابن دقماق والمقرزى والأوحدى والسيوطى ونسج على منواله فى الكتابة عن القضاة ابن زولاق وابن حجر العسقلانى وابن شاهين .

ويوجد مؤرخ مصرى آخر هو ابن عبد الحكم^(١) المتوفى فى الفسطاط (٨٧١م) ويعد مؤلفه «فتوح مصر والمغرب» مرجعاً قيماً لتاريخ مصر الإسلامية، بل وتاريخ العرب فى مصر والمغرب، وهو أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية ولخطط مصر .

وكتب بعد الكندى مؤرخان مصريان كبيران، هما الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثى المصرى، والأمير المختار عز الملك المسيحى، وولد أولهما بالفسطاط سنة (٣٠٦هـ / ٩١٨م) وقد أدرك إنشاء القاهرة المعزية وتوفى سنة (٣٧٨هـ / ٩٩٧م) وقد عنى بتاريخ مصر وألف كتاباً فى سيرة الأخشيد وكتباً فى فضائل مصر وفى خطط مصر، وكتباً أخرى فى سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز^(٢) .

(١) هو المؤرخ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم كان متضلماً فى الشريعة الإسلامية، وقد أثار سخط ابن طولون عليه حين رفض الموافقة على قرار الجمعية التى عقدها ابن طولون لخلع ولى عهد الدولة العباسية - انظر كتاب استخدام المصادر وطرق البحث للدكتور على إبراهيم حسن . ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الأخشيديين . ص ٣٢٩ .

الفسطاط والرحالة

مشاهدات ناصر خسرو

فى طليعة الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر ووصفوا أحوالها أثناء العصر الفاطمى - ناصر خسرو. فقد خلف وصفاً جيداً لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولاً فولا. وحسبنا أن نشير هنا إلى وصفه القاهرة والفسطاط وكلامه عن حضارة مصر فى عصر الخليفة المستنصر بالله، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والفنون والأسواق والعادات الشعبية . . إلخ (١).

وقد ترجمت رحلة ناصر خسرو إلى الفرنسية والعربية (٢)، وأصبحت

(١) ولد ناصر سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) فى بلدة من أعمال بلخ وتأدب على بعض العلماء وقام فى شبابه بأسفار عديدة فى أنحاء إيران وتركستان والهند وبلاد العرب ثم استقر فى منصب كبير فى ديوان السلاجقة بمرو، وظل يعيش عيشة ترف وبطالة حتى عام ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) ثم ضحى بمنصبه وبدأ حياته جد وسفر وعلم، فسافر لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة فى بلاد الشرق الوسيط بين عامى ١٠٤٥، ١٠٥٢، ولما عاد إلى وطنه كان قد ترك مذهب السنى وأصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للفاطميين، ولكن السلاجقة لاحظوا خطر هذه الدعوة فاضطهدوه واضطروه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توفى سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م).

(٢) سفرنامه نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب. رحلة تقع حوادثها بين سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) وسنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م). مطبوعات معهد اللغات الشرقية، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٥٤.

مرجعاً أساسياً فى دراسة الحضارة الإسلامية فى الشرق الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ويعد الجزء الخاص من وصف مصر فى رحلته من أكثر المصادر التاريخية إمتاعاً وأعظمها شأناً فى بيان حال البلاد قبل القحط أو الشدة العظمى التى حلت بها فى نهاية عصر الخليفة المستنصر بالله.

أقام ناصر فى مصر فيما بين ٧ صفر ٤٣٩هـ وأواخر جمادى الثانى ٤٤٢هـ (١٠٤٧ - ١٠٥٠م) فكانه أقام فيها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، ودون مشاهداته بدقة وإسهاب، فوصف الحياة العقلية وتحدث عن الأزهر ودار الحكمة وجامع عمرو وعن العلماء والفقهاء ودعاة الفواطم، كما أنه درس الحياة الاجتماعية عن كثب وأطنب فى التدليل على ثروة البلاد ورخائها، ووصف القاهرة وصفاً شائقاً كما أنه عرج على الفسطاط حيث كانت الحركة التجارية والصناعية فأسهب فى الكلام على أحوالها وبيوتها وجوامعها وحدائقها وصناعاتها وأسواقها، كما أنه أشار إلى صناعة الخزف فى العصر الفاطمى، حتى أصبحت ملاحظاته وآراؤه عن الآثار والفنون فى رحلته مرجعاً أساسياً للمشتغلين بالفن الإسلامى، فقال أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة، وأن الخزف المصرى كان رقيقاً وشفافاً، والطريف أن ما وصل إلينا من التحف الفنية الفاطمية يؤيد تماماً ما كتبه ناصر خسرو فى هذا الحقل.

جاء ناصر خسرو إلى مصر عن طريق شمالى سيناء ماراً بطينة وهى مرفأ للسفن ثم وصل إلى جزيرة تينس التى وصفها الرحالة وصفاً مسهباً، كانت تينس من أجل مدائن مصر بالبحيرة التى تعرف اليوم باسم المنزلة، وكان لها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد. وكان بها عدة مساجد - نحو مائة

وستين مسجدا - بكل مسجد منارة، وكان بها ستة وثلاثون حماما، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب، وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون بها الثياب الشرب التي لا يصنع مثلها في الدنيا وكانوا ينسجون بها أثواباً تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار، وكانت تحمل منها إلى بغداد، ولم تزل مدينة عامرة إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١١٧٧) حتى جاء إليها نحو أربعين مركباً موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها إلى ثغر دمياط وتركوا المدينة، فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خراباً ورحلوا عنها واستمرت على ذلك إلى سنة أربع وعشرين وستمائة (١٢٢٦) في دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خراباً من يومئذ إلى الآن.

غادر ناصر مدينة تينس وسارت سفينته في النيل حتى وصل إلى الصالحية وكانت في ذلك الحين تصنع السفن وتنقل العروض إلى مدينة مصر، ثم بلغ قرب القاهرة، وفي يوم الأحد السابع من صفر ٤٣٩ (٤ أغسطس ١٠٤٧م) كان بالقاهرة.

وإليك ما كتبه ناصر خسرو عن مصر والفسطاط:

«شيدت مصر على ربوة، وجانبها الشرقى جبلى يتكون من جبال حجرية غير عالية كالتلال، وفي طرف المدينة جامع ابن طولون - وهو مشيد على ربوة وله جدران محكمة، ولم أر أعظم منها غير جدار آمد وميافارقين.

وقد بناه أمير من أمراء العباسيين كان حاكماً على مصر . وفى أيام الحاكم بأمر الله باعه أحد أحفاد ابن طولون بثلاثين ألف دينار مغربى . وبعد مدة شرعوا فى هدم المئذنة بحجة أنها لم تبع ، فأرسل لهم الحاكم قائلاً: «لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه؟» فأجابوا: «نحن لم نبع المئذنة» فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنًا لها . وكان السلطان يصلى فى هذا المسجد طوال شهر رمضان ، وأيام الجمع من بقية الشهور .

ومدينة مصر مشيدة على ربوة ، خشية فيضان الماء عليها ، وهذه الربوة كانت مغطاة ، فى وقت ما ، بأحجار كبيرة جداً . فكسرت وسويت ، ويقال للأماكن التى لم تسو «عقبة» وتبدو مصر كأنها جبل ، حين ينظر إليها من بعيد .

وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار ، وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى بر ، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر ، وزرع على هذا السطح شجر النارج والموز وغيرهما . وقد أثمرت كلها ، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى .

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دوراً كثيرة فيها حجرات للاستغلال - أى للإيجار - ومساحتها ثلاثون ذراعاً فى ثلاثين ، وتسع ثلاثمائة وخمسين شخصاً ، وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائماً لأن الضوء لا يصل إلى أرضها ويسير فيها الناس .

وفى مصر سبعة جوامع ، غير جوامع القاهرة ، والمدينتان متصلتان ،

وفيهما معاً خمسة عشر جامعاً (مسجد الجمعة) وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة في كل حى منهما.

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى «باب الفتوح» شيده عمرو بن العاص، أيام إمارته على مصر من قبل عمر بن الخطاب، وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام. والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل، ويحيط بالمسجد، من جهاته الأربع، الأسواق، وعليها تفتح أبوابه ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه، فى أى وقت، عن خمسة آلاف، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها. وقد اشترى الحاكم بأمر الله هذا المسجد من أبناء عمرو بن العاص، وكانوا قد ذهبوا إليه وقالوا: «نحن فقراء معوزون وقد بنى جدنا هذا المسجد فإذا أذن السلطان نهدمه ونبيع أحجاره ولبناته»، فاشتراه الحاكم بمائة ألف دينار، وأشهد على ذلك كل أهل مصر، ثم أدخل عليه عمارات كثيرة وعجبية منها ثريا فضية لها ستة عشر جانباً، كل جانب منها ذراع، ونصف دائرتها أربع وعشرون ذراعاً.

ويوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل. ويقال أن وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطاراً فضية، كل قنطار مائة رطل وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم. ويقال أنه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها، فخلعوا باباً وأدخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه. ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصر الجميل الملون بعضها فوق بعض، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل. وفى هذا المسجد يجلس قاضى القضاة.

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى «سوق القناديل» لا يعرف سوق مثله فى أى بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف. ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها. ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلوراً غاية فى الجمال، وهم يحضرون من المغرب، وقيل أنه ظهر حديثاً عند بحر القلزم، بلور أطف وأكثر شفافية من بلور المغرب، ورأيت أنياب الفيل أحضرت من زنجبار، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى من، كما أحضر جلد بقر من الحبشة، يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال. وقد جلبوا من الحبشة طائراً أليفاً كبيراً، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاح مثل الطاووس، وتنتج مصر عسلاً وسكراً كثيراً. ورأيت فى يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنانج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليج (الأهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر والبادنجان والقرع واللفت والكرنب والفاول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر.

وكل من يذكر كيف تجتمع هذه الأشياء، التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى، وبعضها صيفى، وبعضها شتوى، لا يصدق هذا. ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت، ولم أكتب إلا ما رأيت، وأما ما سمعته ثم كتبتة، فليست عهدته على، وولاية مصر عظيمة الاتساع، بها كل أنواع الجو من البارد والحر. وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويبيع بعضها فى الأسواق.

ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا

وضعت يدك عليه من الخارج فظهرت من الداخل، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد في الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن.

وسمعت من بزاز ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشتري بثلاثة دنائير ونصف نيشابورية. وقد سألت في نيشابور بكم يشترون أجود الخيط؟ فقالوا أن الخيط الذى لا نظير له يشتري الدرهم منه بخمسة دراهم.

ومدينة مصر ممتدة على شاطئ النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة بحيث إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال منالنيل، أما ماء المدينة فيحضره السقاةون من النيل أيضاً، ويحمله بعضهم على الإبل وبعضهم على كتفه ورأيت قدوراً من النحاس الدمشقى، كل واحد منها يسع ثلاثين مناً، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب. وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر وأنها تؤجد الواحد منها بدرهم فى الشهر، وبينغى أن يردها المستأجر سليمة.

وأمام مصر جزيرة، وسط النيل، كان عليها مدينة فى وقت ما، والجزيرة غربى المدينة، وبها مسجد جمعة وحدائق، وهى صخرة وسط النهر، تقسمه قسمين، كل منهما فى اتساع جيحون، ولكن أكثرها هدوءاً وبطناً فى جريانه، وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة.

ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الآخر، ويسمونه الجزيرة، وبها مسجد لصلاة الجمعة. ولكن ليس بها جسر، ولذا يعبر الناس بالزوارق أو بالمعابر وهى كثيرة فى مصر، أكثر مما فى بغداد أو البصرة.

وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون، وإذا كذب أحدهم على مشتر فإنه يوضع على جمل، ويعطى جرساً بيده، ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلاً: قد كذبت وها أنا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب.

ويعطى التجار فى مصر، من بقالين وعطارين وبائعى خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون، من زجاج أو خزف أو ورق، حتى لا يحتاج المشتري أن يحمل معه وعاء.

ويستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتاً للمصاييح يسمونه «الزيت الحار»، والسمسم هناك قليل وزيته عزيز، وزيت الزيتون رخيص. والفسق أعلى من اللوز ولا تزيد العشرة أمان من اللوز المقشور على دينار واحد.

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق، وفى كل حى على رأس الشوارع، حمر كثيرة عليها برادع مزينة، يركبها من يريد، نظير أجر زهيد. وقيل أنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى. ولا يركب الخيل إلا الجند والعسكر، فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف، ويركبها العلماء، ورأيت كثيراً من الحمر البلق كالحيل بل أجمل.

وكان أهل مدينة مصر فى غنى عظيم حين كنت هناك.

وفى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٧م) ولد للسلطان ولد، فأمر الناس بإقامة الأفراح، فزينت المدينة والأسواق زينة لو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول، ولما صدقونى. فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين

وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة، والملابس المذهبة والمقصبية، بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس.

وكان الناس جميعاً يثقون بالسلطان، فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحداً ولا يطمع فى مال أحد. ورأيت أموالاً يملكها بعض المصريين ولو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس فى فارس، فإنى لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها. أما الأمن الذى رأيتُه هناك فإنى لم أره فى بلد من قبل.

وقد رأيت هناك نصرانياً من سراة مصر، قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد. وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصاً، وكانت الغلة عزيزة فأرسل الوزير إلى هذا النصرانى وقال: «ليست السنة رخاء، والسلطان مشفق على الرعية، فاعط ما استطعت من الغلة، إما نقداً وإما قرضاً» قال النصرانى: «أسعد الله السلطان والوزير إن لى من الغلة، ما يمكنى من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات». ولا شك أن سكان مصر، فى ذلك الوقت، كانوا كثيرين، فإن سكان نيشابور خمسهم مع الإسراف فى التقدير. وكل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار وأى سلام كانت فيه الرعية وأى عدل كان للسلطان، بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر. لم يكن السلطان يظلم أو يجور على أحد ولا كان أحد من الرعية يخفى أو ينكر شيئاً مما يملك.

ورأيت هناك رباطاً يسمى «دار الوزير» لا يباع فيه سوى القصب. وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون وفى الأعلى الرفاءون. وسألت القيم عن

أجرة هذا الرباط الكبير، فقال: كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربي، كل شهر ألف دينار. يعنى باثنى عشر ألف دينار فى السنة وقيل أن فى هذه المدينة مائتى رباط أكبر منه أو مثله.

الفسطاط

فى مشاهدات على بن سعيد

أديب كبير ورحالة قدم إلى مصر فى عام ١٢٤٦م، وبقى فيها فترة طويلة فوصف لنا أحوال الفسطاط والقاهرة فى أخريات أيام الأيوبيين والسنوات الأولى من حكم المماليك. نشأ فى بيئة أدبية خالصة، كما حرص أبوه على إعدادة وتثقيفه، فأتيح له أن ينهض بإتمام كتاب «المغرب» الذى تعاقب على تأليفه ستة من أدباء الأندلس ألفوه بالموارثة فى مائة وخمسة عشر عاماً، تناولوه بالتنقيح والإضافة واحداً بعد الآخر (١).

ولد بقلعة يحصب (٢) فى غرناطة سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م - ١٤ من قبيلة يمنية احتل أبناؤها هذا المكان عند فتح الأندلس، نزل بالإسكندرية لما كان فى التاسعة والعشرين من عمره بصحبة والده وهما فى طريقهما إلى مكة، ويبدو أنه كان حسن الصحبة جميل العشرة وأنه خالط أدباء مصر وشعراءها وتعرف دخائلهم.

(١) مقدمة كتاب المغرب فى حلى المغرب للدكتور زكى محمد حسن ص م ١١. مطبعة كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٥٣.

(٢) تعرف هذه القلعة باسم Alcalà la Real وعرفت أيضاً باسم قلعة بنى سعيد، المصدر السابق ص م ١٦.

وكان من حسن حظ على بن سعيد أن قدم إلى مصر سنة ٦٤٤ /
١٢٤٦م القاضى كمال الدين بن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف
صاحب الشام إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب. ولم يكن ابن العديم
قطب أهل العلم وزعيمهم فحسب ولكنه كان مقرباً من السلطان لمكان أسرته
فى البلد جاهاً وعلماً، واتصل على بن موسى بابن العديم فاختمه بمعرفه
وأثره بيره، وزين له الرحلة إلى حلب ولقاء صاحبها الملك الناصر، فنشط
على لفعل ذلك، وقصد إلى بلاط هذا الملك سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م وظل فى
حلب تترادف عليه النعم إلى أن رحل منها سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩م متجهاً إلى
دمشق، ثم رحل إلى بغداد فى السنة التالية ماراً بأرمينية وأرجان، وحج بعد
ذلك إلى بيت الله الحرام ورجع من الحجاز إلى تونس سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م
حيث نزل عند صديقه أبى العباس التيفاشى ونال الخطوة عند أبى عبد الله
المستنصر بالله. وكان بلاط هذا الأمير مقصد العلماء والأدباء والسفراء منذ مد
سلطان بنى حفص فى المغرب الأوسط، واتخذ لنفسه لقب «الخليفة» و«أمير
المؤمنين» بعد سقوط بغداد فى يد التتر.

وحن على بن موسى بن سعيد إلى المشرق ثانية فرحل إليه سنة
٦٦٦هـ / ١٢٦٨م وسمع فى الإسكندرية بأعمال هولاكو، فأحب أن يسعى
إليه، وسافر إلى حلب ومنها إلى أرمينية حيث أقام فيها مدة ضيقاً على
هولاكو، ويبدو أنه أوغل فى هذه الرحلة نحو الشرق فوصل إلى إيران، ثم
عاد إلى تونس وأمضى فيها بقية حياته إلى أن أدركته الوفاة فى الربع الأخير
من القرن الثالث عشر.

قام ابن سعيد برحلات طويلة طويلة في ديار الإسلام، وأفاد من مشاهداته فيما ألف من التاريخ وتقويم البلدان. والراجح أنه جال في غربى أفريقيا ورأى مصب نهر سنغال، وربما توغل في كشف الساحل الأفريقي الغربى إلى أبعد مما كان معروفًا عند الأوروبيين حينذاك^(١). والحق أن لعلى ابن موسى بن سعيد منزلة سامية بين الجغرافيين المسلمين، ولكن حجبتها شهرته بين المؤرخين والأدباء، بل لقد كان واسع الاطلاع ودقيق الملاحظة في هذا الميدان، بحيث سجل بعض الأحداث التى كان لها شأن عظيم فى تطور العمران والتى لم يفتن إليها غيره من المؤرخين والجغرافيين ومن ذلك ما كتبه من هجرات بعض سكان الهند الصينية وجزر الملايو إلى أفريقيا الشرقية^(٢).

والذين صنفوا كتاب «المغرب» ولا سيما على بن موسى بن سعيد - لم يفيدوا من المصنفات التى اطلعوا عليها ومن الرواية الشفوية فحسب، بل اعتمدوا على المشاهدة كل الاعتماد. والحق أن المشتغلين بالآثار والفنون الإسلامية يقدرون «كتاب المغرب» حق قدره، لما يفيدونه مما سجله فيه على بن موسى بن سعيد معتمداً على المشاهدة. مصداق ذلك عنايتهم بما كتبه فى وصف الفسطاط والقاهرة، وكان على بن سعيد نفسه يرى أن للمشاهدة شأنًا عظيمًا فى العلم والمعرفة فكان يدون فى المناسبات المختلفة ما يؤيد ذلك. وسيبدو ذلك لنا فيما كتبه وهو يصف ما رآه فى الفسطاط والقاهرة.

جاء فى كتاب «الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط» من كتب المغرب فى حلى المغرب:

(١) زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢) G. Ferrand: Relations des Voyages et Textes Geographiques Arabes Persans et

.Tures relatifs a l'Extreme - Orient. (Paris 1913 - 1914) t, II pp. 316 et seq.

من كتاب الكمائ^(١): وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس، وجاء الإسلام وبها مبنى يعرف بالقصر، حوله مساكن، وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع الآن المنسوب إليه، ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل، ونسبت المدينة إليه، فقبل فسطاط عمرو. وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر، فاتخذوها (سرير السلطنة)، وتضاعفت عمارتها، فأقبل الناس من كل جانب إليها، وقصدوا أمانهم عليها، إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون، فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع، وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن إلى جانب القاهرة. وقد أمعنت السؤال عنها فأخبرت أنها مدينة مستطيلة، يمر النيل مع طولها، وتحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل ومن جنوبه بأنواع الفوائد، ولها متنزهات. قال ابن سعيد: وسأذكرها فيما بعد. قال: وهى فى الإقليم الثالث، ولا ينزل فيها المطر إلا فى النادر، وترابها تثيره الرجل، وهو قبيح اللون، تتكدر منه أرجاؤها، ويسوء بسببه أهواؤها، ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة، وقد بنيت القاهرة للخلفاء الإسماعيليين المتوثبين عليها من المغرب فضعت مدينة الفسطاط وفرط فى الاغتباط بها بعد الإفراط، وبينهما نحو ميلين، وأنشدت فيها للشريف العقيلي:

(١) هذا الكتاب لليهقى. وينقل عنه ابن سعيد هنا وفى كتاب القاهرة، وقد احتفظ المقرئى فى الخطط (طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ) ج١ ص ٣٤٠ بهذه الفقرة، واحتفظ بها أيضاً المقرئى فى النسخ (طبعة دوزى وزملائه) ج١ ص ٦٨٥.

أحن إلى الفسطاط شوقًا وإننى

لأدعو لها أن لا يحل بها القطر

وهل فى الحيا من حاجة لجناها

وفى كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروسًا والمقطم تاجها

ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

كان خبرها (الفسطاط) قد ملاً سمعى من الكتب وما أتلقاه من الحجاج
الصادرين وأنا واقف من شأنها بين اختلاف لقلّة اتفاق الأغراض وتشتت
الأهواء، فلما وصلت إلى الإسكندرية من إفريقية ركبت فى الخليج إلى النيل
الأعظم، ثم سرت فيه إلى أن وصلت إلى منية السيرج فى شمالى القاهرة،
فركبت منها فى البر إلى القاهرة، وعانيت ما سأذكره إن شاء الله فى كتاب
القاهرة. ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط، فسار معى إليها
أحد أصحاب العزية (الغربة)، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب
من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة، فركبت منها حماراً، وأشار إلى أن
أركب حماراً آخر، فأنفت من ذلك، جرياً على عادة ما خلفته من بلاد
المغرب، فأعلمنى أنه غير معيب على أعيان مصر. وعانيت الفقهاء وأصحاب
البزة والشارة الظاهرة يركبونها، فركبت فعندما استويت راكباً أشار المكارى
على الحمار فطار بى وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى
وعانيت ما كرهته. ولقلّة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم
أعهده، وقلّة رفق المكارى، وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج
وقلت:

لقيت بمشر أشد البوار

ركوب الحمار وكحل الغبار

وخلفى مكار يفوق الرياح

ولا يعرف الرفق مهما استطار

أناديه مهلاً فلا يرعوى

إلى أن سجدت سجود العثار

وقد مد فوقى رواق الثرى

والحد فيه ضياء النهار

فدفعت إلى المكارى أجرته، وقلت له: إحسانك إلى أن تتركنى أمشى على رجلى ومشيت إلى أن بلغتها، وقدرت فى الطريق بين القاهرة والفسطاط، وحقفته بعد ذلك، نحو الميلىن. ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء، وأفاقاً مغبرة، ودخلت من بابها، وهو دون غلق، يفضى إلى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأذكن والقصب والنخيل، طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض طرف الظريف، فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به إلا مشاهداته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعانيت من ضيق الأسواق التى حوله ما ذكرت به ضده فى جامع أشبيلية وجامع مراكش، ثم دخلت إليه فعانيت جامعاً كبيراً قديماً البناء، غير

مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه، وتبسط فيه .
وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من
باب ليقترب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك
وما جرى مجرى ذلك، والناس يأكلون منه فى أمكنة عدة، غير محتشمين
لجرى العادة عندهم بذلك، وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل،
قد جعلوا ما يحصل لهم منها رزقا، وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن
الجامع وفى زواياه. والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان
والحيطان. والصبيان يلعبون فى صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة
بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العوام، إلا أن مع هذا كله، على
الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جاع
أشيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه، ولقد تأملت ما وجدته فيه من
الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك، فعلمت أنه سر مودع من وقوف
الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه، واستحسنت ما أبصرته فيه
من حلق المتعددين لقراءة القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن، وسألت عن
موارد أرزاقهم، فأخبرت أنها من فروض فى الزكاة وما أشبه ذلك، ثم
أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجاء والتعب، فنص عندى تلك القاعدة
التى وجدتها من اجتماع العلماء على أرزاق تفرغ المعلم للتعليم، وتنشط
المعلم للاستفادة. ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل، فرأيت ساحلاً
كدر الربة غير نظيف، ولا متسع الساحة، ولا مستقيم الاستطالة، ولا عليه
سور أبيض يبهج العيون بلونه وحسن استقامته، إلا أنه مع ذلك كثير العمار
بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل، ولئن قلت إنى
لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقاً. والنيل

هنالك ضيق يكون الجزيرة التي بنى فيها السلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل. وقد ذكر ابن حوقل الجسر الممتد من الفسطاط إلى الجزيرة وهو غير طويل، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربي المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه، وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم في المراكب، لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما في حيز قلعة السلطان. ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكباً احتراماً لموضع السلطان، وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة^(١) مرتفعة على جانب النيل، فقلت:

نزلنا من الفسطاط أرفع منزل

بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد

وقد جمعت فيه المراكب سحرة

كسرب قطا أضحى يرف على ورد

وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمى

ويطفو حنانا وهو يلعب بالنرد

غدا مأؤه كالريق ممن أحبه

فمدت عليه حلية من حلى الخد

(١) الطيارة نوع من القوارب كان يجرى فى أنهار العراق، وقد عرف منذ القرن الرابع

الهجرى. راجع الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لأدم متز، ج ٢ ص ٣٣٣.

وقد كان مثل الزهر من قبل مده

فأصبح لما زاده المد كالورد

قلت هذا لأنى لم أذق فى الحياة أحلى من مائه، وأنه يكون قبل المد
الذي يزيد به، فيفيض على أقطاره، أبيض، فإذا جاء عباب النيل صار أحمر،
وقد أكثر الشعراء فى ذكر ذلك، وتقدم منه ما تقدم، وأنشد فيه علم الدين
فخر الترك أي دمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط وأهلها:

حبذا الفسطاط من والدة

جنبت أولادها در الجقبا

يرد إليها النيل كدرا

فإذا ما زج أهليها صفا

لطفوا فالمزن لا يألّفهم

فجلا لما رأهم أطفبا

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط، حتى أنهم ألطف من
أهل القاهرة، وبينهما نحو ميلين. وجملة الحال أن آل الفسطاط فى نهاية من
اللطافة واللين فى الكلام، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدر
الصحابة، وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره. ولقد تكررت إليها مرات.
وصحبت فيها بتوالى السنين جملة ناس فما فارقتها وأنا راض من أهلها بغير
مكارم بنى القسطلانى الفقهاء المالكية، فإنهم يصدقون ويرعون الصحبة
ويوفون بالعهد ويؤدون الأمانة، لا تبرح الأضياف تفشى منازلهم على ما تيسر
من مكارمهم فى حالى اليسر والعسر، وهم فى ذلك طول الأيام، لازمين

طريقة واحدة فى الكرم والصبر. ورأيت من شاعرها جمال الدين أبى الحسين
الجزار ما لم أره فى كثير من شعراء البلاد وأدبائها، فإنه فارقتى بعد صحبة
سنين وأنا أشكره وأوده أكثر من شكرى وودى له فى أول سنة صحبته فيها.
وطالما قصد القاهرة لاستدعائى إلى كرامته بالفسطاط، وبت عنده فى نهاية من
السرور والانبساط، وكم سعى فى حقى وشهرة ذكرى، جزاه الله خيراً على
بعد داره، ولا أسمع إلا ما يسر من أخباره.

وخرجت معه مرة إلى ظاهرة الفسطاط حيث بركة الحبشى التى يقول
فيها أبو الصلت^(١):

لله يومى ببركة الحبش

ونحن بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب

كصارم فى يمين مرتعش

وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر، ثم زرتها أيام
غاض معظم الماء وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن
الناظر، وفيها أقول:

يا بركة الحبش التى يومى بها

طول الزمان مبارك وسعيد

(١) هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى شاعر وأديب مشهور زار مصر سنة
٤٨٩هـ / ١٠٩٥ - ١٠٩٦م وسجن بها ومكث فيها حوالى عشرين سنة وتوفى سنة
٥٢٨هـ ..

حتى كأنك فى البسيطة جنة

وكأن دهري كله بك عيد

بأحسن ما يبدو وبكر الكتانى فى

نواره أو زره معقود

والماء منك سيوفه مسلولة

والقرط فيك رواقه ممدود

يا ليت شعري هل زمانك عائد

فالشوق فيه مبدىء ومعيد

وبت لىالى كثيرة بقرافة الفسطاط، وهى فى شريقها، بها منازل لأعيان
الفسطاط والقاهرة وقبور عليها مبان معنى بها، وفيها القبة العظيمة العالية
الزمخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه، وبها مسجد جامع،
وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء ومدرسة كبيرة للشافعية ولا تكاد تخلو من
طرب ولا سيما فى الليالى القمرية، وهى معظم مجتمعات أهل مصر،
وأشهر متنزهاتهم، وفيها أقول:

إذ القرافة قد حوت ضدين من

دنيا وأخرى فهى نعم المنزل

يغشى الخليع بها السماع مواصلا

ويطوف حول قبورها المتبتل

كم ليلة بتنا بها ومدامنا

لحن يكاد يذوب منه الجندل

والبدر قد ملأ البسيطة نوره

فكأنما قد فاض فيها جدو

وبدا يضاحك أوجها حاكيته

لما تكامل وجهه المتهلل

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندراني والبحر
الحجازي فإنه فوق ما يوصف، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى
القاهرة وسائر البلاد. وبالفساط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا
المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند، كما أن جميع «زى» الجند هو
بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط، وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من
الأشياء الرقيقة السلطانية. والخراب في الفسطاط كثير. والقاهرة أجد وأعمر،
وأكثر زحمة، بسبب انتقال السلطان لها، وسكنى الأجناد فيها. وقد نفخ
روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن. لمجاورتها للجزيرة الصالحية.
وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة أو بنى على سورها جماعة
منهم مناظر تبهج الناظر. وفوق القرافة في شريقها جبل المقطم وليس له علو
ولا فيه اخضرار، وإنما يقصد للبركة، وفي سفحه مقابر أهل الفسطاط
والقاهرة.
